"وما هو بقول شاعر"..

الأستاذة: صافية درلجي
جامعة قسنطينة

باسم الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي كشف حجب الضلال بالقول الفصل وجعل القرآن حجة في ذاته تكسر مراء المرائين وهراء المارقين وجعل الرد على أعدائه أعداء الدين رسالة على عاتق العلماء وجعل العلماء ورثة الأنبياء حين يكون الإخلاص مرادهم ووجه الله ملاذهم وخدمة الحق بغيتهم وإصلاح الأنفس مبتغاهم. ثم الصلاة والسلام على من لا نبي بعده حمل الرسالة بأمانة، وأدى الأمانة بصدق وعناية. فتح القلوب على الهداية مصدقا وعد ربه كأسمى غاية فكان نصر من عند الله عظيم. ملايين تذود بحبه وتتهجد باسمه وتصلي على روحه فصل اللهم وسلم وبارك على نور الأنوار، بهجة القلوب ومتعة الأبصار.. قال عن ربه فكان إن هو إلا وحي يوحى. وأبلغنا عن ربه قوله جل وعلى: " وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ" الحاقة/الآية 41، "وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ" يس/الآية 69.

لقد حارت عقول العرب أمام معجزة القرآن فاحتكم أهل الضمائر الحية من لم يعم الحقد بصيرتهم إلى حقيقة الرؤية العينية والبصيرة القلبية فصدقوا الحي المرسل وعلموا أن ما يقوله ذاك الصادق الأمين المسمى محمد بن عبد الله إنما هو وحي إلهي وكلام رباني لا يمكن للمقدرة البشرية أن تأتي بمثله فآمنوا منذ البدء واكتفوا بما سمعوه من كلام عجيب ونظم غريب وتركيب فريد ليكون آية إيمانهم. ولؤلئك الذين قبلوا التحدي فقد خابت مساعيهم

وكللت أمالهم بالخسران فمنهم من آمن ومنهم من بقي في ضلاله القديم متكبرا متغطرسا جاحدا رافضا النظر إلى الحقيقة التي تكسر غطرسة المتغطرس، واستعباد المستعبد، وظلم الظالم، وتسلط المتجبرين المتكبرين.

كانت للعرب لغة لا تضاهى في الفصاحة، وبلاغة لا تقارن بأية بلاغة. إنها اللغة التي كان أهلها ينطقون الضاد من شقيهم الأيمن والأيسر فسميت كذلك بلغة الضاد. وبقدر جمالها وحيويتها وسعتها وضخماتها بقدر صعوبتها وعسر ترويضها ورغم ذلك كان كلام العرب في أرقى مستوى وكانت لغتهم أبهى لغة. كان البسيط منهم بليغا والصغير منهم فصيحا تربوا على السليقة ولغتهم مع الزمن تزداد قوة ومتانة، وتعلوها مسحات من النبض الجمالي ومساحات من كسر أفق التوقع فكان نثرهم يجسد المستوى الراقي للغة ولكن الشعر أسمى وأبهر وأرقى وأعجب إذ يحمل إضافة إلى الإيقاع الموسيقى المجسد في صورة بحور شعرية هي أوزان تزن قصائد العرب كان لهذه الطاقة الشعرية أسلوبا جميلا يقوم على الانزياح، على كسر القاعدة اللغوية لترسم منافرات دلالية من خلال ما عرف من ظواهر بلاغية وأسلوبية كالتقديم والتأخير والحذف والبياض، والتكرار والتضمين وصور بيانية من تشابيه واستعارات يسميها المنهج الأسلوبي انزياح دلالي أو منافرات دلالية.

ولسمو مكانة الشعر العربي الجاهلي آنذاك اختيرت أفضل القصائد حصروها في عشرة منها (وقيل سبعة) كتبت بماء الذهب وعلقت على أسطال الكعبة. وما أدراك ما الكعبة فحتى في عهد الجاهلية لم تنتقص قيمتها ولم تمس هيبتها لقد ظلت محافظة على قدسيتها منذ عهد الخليل "إبراهيم" عليه السلام. كانت المعلقات مفخرة العرب يطّلع التّجار واالزّوار والحجيج على أبلغ وأرقى وأعظم إنتاج قريحي عربي، وأرقى مستوى بلاغي يمكن ان تصله أمة العرب في تاريخها الطويل.

لقد هيأ الله سبحانه وتعالى هذا الجو.. وهو أعلم بما يصنع.. حيث لن توجد بعد المعلقات أية طاقة لغوية لأن يقول العرب قولا كالذي قالوه أو يبدعوا خطابا كالذي أبدعوه.. هيأ الله سبحانه وتعالى جوا للتحدي. وحاشا لله فما البشر بأنداد لله ليتحداهم لكنه تعامل مع العقل البشري الضعيف الذي لا يفهم إلا بالدليل والبرهان. فلما كانت لهم هذه الذائقة اللغوية القوية التي تميز أصناف الخطابات ستقع عليهم الحجة إن أنكروا نبوة محمد وكفروا بمعجزة القرآن. إنه الجو الذي تتضح من خلاله صورة الإعجاز القرآني. لقد هيأ الله جوا لسماع كلام أبهى وأبلغ وأمتن وأسمى وأحلى مما قالته العرب شعرا ونثرا.

نزل القرآن الكريم غريب في نظمه، عجيب في سبكه، مغاير في وقعه، جزل في قوله، له من خصائص الشعر وما هو بشعر، وله من خصائص النثر وما هو بنثر، خطابا عربيا صوتا ولفظا وتركيبا لكنه ليس كالنظم العربي الذي اعتادوه وتعودوه. حير عقول البلغاء، أخرس ألسنة الشعراء، أصم آذان النقاد، أعجبوا به أيما إعجاب فانهالت أفواه تسأل وأخرى تجيب أي صنف من الخطاب هو: أهو قول شاعر؟ أهو كلام ساحر؟ أم هو هراء مجنون؟

سألوا كبيرهم "الوليد بن المغيرة" الملقب بريحانة قريش وكان من أغنى أغنيائهم ومن كبار كبرائهم له مكانته وكلمته بين قبيلته وأبناء عرشه فأجابهم مؤكدا أنه ما منكم رجلا بأعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه مني ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن... والله ما يشبه الذي يقوله محمد شيئا من هذا.. ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن.. إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر"، ثم فكر وقدر وقال ما هو إلا ساحر. أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه.

فكانت المناسبة وكان السبب لنزول قوله تعالى: " إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25)". المدثر/ الآيات (18 . 25).

لقد اعترف "الوليد بن المغيرة" وهو أعلم العرب بخصوصيات الشعر وأعلمهم بما يميز الشعر عن غيره من الفنون أن القرآن الكريم ليس شعرا. اعترف هذا الاعتراف الخطير رغم رفضه الإسلام، رغم كفره وعدائه لرسالة السماء. فإذا كان هذا اعتراف عالم بأسرار الأدب العربي، بأشعاره وأرجازه فكيف يأتي اليوم من لا يمت بصلة للغة العربية الأصيلة وللشعر العربي أن يحكم على القرآن أنه شعر وأن قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما هو قول شاعر.

لقد آمن لمسمعه "عمر بن الخطاب" ذاك الشديد الذي ما ظُنّ أنه عن نهج آبائه سيحيد لكنه آمن.. فذائقته اللغوية دفعته إلى الاعتراف بأن هذا القول يفوق مستوى "**محمد**"، ومثل هذا النظم ليس بنظم العرب وهم أرباب البلاغة والفصاحة، ما عرفوه لا في شعرهم، لا في خطبهم ولا في حكمهم، لا في مراسلاتهم ولا في أمثالهم.. ما صادفوا مثله قولا وهم الأشهاد أن محمدا الصادق الأمين ليس كاذبا لا ولا شاعرا لا ولا كاهنا، كان راعي غنم في صغره ثم صار تاجرا في كبره. أميّ ولد على الفطرة وأميّ لم يقرأ ولم يكتب. إنه لم ينظم شعرا قبل الأربعين فكيف له أن ينظم بعد الأربعين. إنه ما سُمع عنه ينطق الشعر لا قراءة ولا احتجاجا ولا إعجابا* قبل الأربعين فكيف له أن ينظم الشعر ويبدعه بعد الأربعين وبطريقة مخالفة للنظم الجاهلي؟ وإنما الشاعر كان ينظم بعد الحفظ من

بل كان صلى الله عليه وسلم ـ حين يحتج بالشعر إنما يكتفي بسرد شطر منه. هذا بعد البعثة، اما قبل البعثة فما سمع عنه ينطق * الشعر مطلقا، لا شطرا ولا أقل من شطر. *

الآخرين وبعد التقليد عن الآخرين.بل لقد كانت سنة العربي أن يحفظ آلاف الأبيات الشعرية حتى تتكون لديه ملكة الإبداع الشعري. وحتى "امرئ القيس" الذي حكموا له بأنه أشعر الشعراء تعلم الشعر في مدرسة خاله "المهلهل".

لكنهم قالوا عنه إنه شاعر.. وأمة نكراء تثبت وتنكر ثم تنكر وتثبت لما لم يجدوا تفسيرا لهذا الإبداع، لما لم يجدوا تأويلا لكلام أبهرهم .. هل يعترفون بأنه إن هو إلا وحي يوحى. لا إنهم جحدوا واستنكرته أنفسهم طغيانا، كيف يقبلون تغيير العقيدة والملة والاعتقاد. كيف يقبلون بمساواة العبيد بالسادة.

كانت العرب تبحث عن أي تفسير يمكن أن تقنع به نفسها حتى وإن لم تقتنع.. أي تفسير يعينها على التمادي في الغطرسة والتعجرف رافضة هذا الدين الجديد الذي جاء ليغير خارطة الإنسان والعالم والمفاهيم ويزعزع الأفكار الجاهلية. فقال الجاحدون من العرب الذين أبوا إلا الكفر والظلال المبين إنه كلام شاعر والذين ادعوا هذا البهتان هم قلة قليلة أما البقية فقد أقحمهم "الوليد بن المغيرة".

ناداهم رب العزة " فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ " الحاقة/ الآيات (38. 42).

ثم ناداهم قائلا: "وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226)" الشعراء/ الآيات (224. 226).

ثم أردف متحديا إياهم . وماهم أندادا لله ليتحداهم . "قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) " الإسراء/ الآية 88.

رفضوا خطاب الإقناع، فشلوا في التحدي.. وقد جربوا فلم يستطيعوا الإتيان لا برديفه ولا بقريبه.. اعترفوا بالعجز. توقفت "الخنساء" عن قول الشعر تماما معترفة بتفرد أسلوب القرآن وتميزه فأي قول ستقوله بعد أن سمعت خطاب القرآن. "الخنساء" هذه المرأة التي كان قد اعترف لها النقد الجاهلي بالفحولية ورفعها "النابغة الذبياني" حتى على "حسان بن ثابت" وجعلها من أشعر شعراء العرب.

ويسير الزمن ويحدو حدوه نحو المستقبل لنجد حملات مسعورة من المستشرقين أعداء الإسلام الذين قالوا مثل قول سابقيهم من الأقلية من عرب الجاهلية: إن القرآن إنما هو شعر.. واستغل المتنصرون هذا المدخل فصاروا يقولون عن القرآن إنه شعر وعن النبي محمد صلى الله عليه وسلم. إنه شاعر.. والأدهى والأمر أن الذين يقولون هذا الكلام ليست لهم ذائقة لغوية عربية. فالعرب في تعاملهم عموما قد هجروا اللغة العربية إلى اللهجات العامية . (يجدر التنبيه إلى التمييز التام مابين اللغة العربية التي هي لغة القرآن ومابين اللهجات العربية المحلية وهي العدو اللدود للغة القرآن.. فالقرآن الكريم مرتبط بلغته وسر إعجازه إنما يكمن في نظمه وبيانه وبديعه وهي ظواهر مرتبطة باللغة العربية الفصحى، الراقية لا اللهجات المحلية).

وفي هذا الصدد يمكن تمييز الناطقين باللسان العربي إلى فئات هي :

ـــ الفصحاء: سواء كانوا عرب أو أعاجم: ولكنها قلة لأسباب عدة فمنهم من يهجر اللغة العربية لصعوبتها ومنهم من يهجرها معتقدا بتخلفها "والمغلوب مولع بإتباع الغالب" على حد تعبير "ابن خلدون"، كذلك مخلفات الاستعمار فالبلد المستعمر بقيت لغته تابعة للغة مستعمره، فضلا عن المنظومة التربوية التي تتعامل باللغات الأجنبية خاصة في

الجامعة. وتكاد تنحصر هذه الفئة المحبة للغة العربية والمهتمة بها على المهتمين بالعلوم الشرعية والمتخصصين فيها والمتخصصين باللغة العربية وآدابها.

ـــ الفئة التي تعتمد اللغة العربية لكن لا تعلم كيف تميز مناحي الجمال فيها ولا أن تكتشف سر التفرد لأسلوب دون آخر. فهذه الفئة حين تعتمدها إنما تنظر إليها كأداة تواصل وفقط كالصحافة ورجال السياسة.

ـــ فئة الأعاجم وهذه الفئة بدورها تنقسم أقساما:

ـــ من يجيدها تماما حتى لا تكاد تميزه عن العربي الأصيل وهذه الفئة هي تلك التي كبرت مع اللغة العربية في المدرسة أو المسجد.

ـــ ومنهم من تعلمها في كبره وهؤلاء ليس من السهل عليهم الغوص في أعماق اللغة العربية وإجادتها مثلما يجيدها الصنف الأول، وإلى هذا الصنف يندرج سلك المستشرقين وبعض المنصرين ومهما كان لهؤلاء المستشرقين من اطلاع على اللغة العربية وعلى القرآن الكريم لن يكون لهم إطلاقا ما يحاذيه من معرفة باللغة من أهلها الذي تربوا في كنفها ورضعوا صوتها وصورتها قديما وحديثا.

ـــ الصنف الثالث ألئك الذين لا يفقهون فيها شيئا وأغلب المتنصرين . في الجزائر على الأقل . هم من هذه الفئة. الجهل مع الكره للغة العربية.

إن الشبهة التي يعتقدها المنصرون شبهة تخدش بالقرآن وتمس قيمته وقدسيته حين اعتبروه شعرا لهو أمر يبعث على السخرية.. فكيف لمن لا تربطه باللغة العربية علاقة أن يقول مثل هذا الكلام وكيف لمن لا يمكنه أن يكتشف نواحي الجمال في الشعر أن يكتشف مناحي التفرد في القرآن؟

كيف يمكن الرد على هؤلاء المدعين علما أن شبهة كون القرآن عبارة عن شعر يعتمدها المنصرون والمتنصرون على حد سواء وهؤلاء عادة ما يكون تعاملهم مع اللغة العربية تعاملا سطحيا وهناك من لا يفقه فيها شيئا. فكيف يمكن الإقناع بإعجازية القرآن من خلال تفرد الأسلوب وارتقاء المعنى ومخالفة النظم للنظم العربي القديم وكون الفاصلة في القرآن ليست إطلاقا تجسيدا للبحر الشعري.. وان الشعرية الجمالية لا تعني دائما الشعر وهم لا يفقهون أسرار العربية أسلوبا ونظما وبيانا وبديعا ومعاني؟؟؟

مظاهر تفرد لغة القرآن الكريم:

1ــ النظم القرآني المتميز:

إن المظهر الأول للإعجاز القرآني . ولمظهر تفرده عن بقية الخطابات البشرية سواء الشعرية منها أو النثرية . أنه يقوم على مبدأ إتقان تأليف جمل الكلام وتراكيبه والتفنن في نظمها وحسن صياغتها. وكان أول من قال إن مدار الإعجاز يقوم على النظم الإمام "**عبد القاهر الجرجاني**" محددا النظم بأنه ليس غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم، يقول: "وليس النظم إلا أن تضع كلامك الموضع الذي يقتضيه علم النحو"[1].

يرى "**الجرجاني**" أن الجاهل بالشعر العربي لا يمكنه أن يفهم سر إعجاز القرآن ولا طريقة نظمه وشكل اختلافه عن الشعر وتميزه بنفسه فما بالك بالجاهل باللغة العربية أصلا كيف له أن يفهم مستوى الإبداع الراقي، ومستوى تميز أسلوب عن آخر. إذ إن المدرك لأسرار الشعر سيدرك لا محال كيف أن الشاعر لا يستطيع أن يقول مثل قول الله جل وعلا.. سيدرك أن القرآن ليس بشعر فهما طينتان مختلفتان وخطابان متباينان ومعدنان لا

1- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تقد علي أبو زقية، دط، موفم للنشر، الجزائر 1991، ص94

يلتقيان وإن كانت الأداة واحدة: " قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ" الزمر/الآية 28 . "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ". يوسف/ الآية2.

يقول "**الجرجاني**": "إذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت، وبانت وبهرت هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتهيا إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر، وكان محالا أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب، وعنوان الأدب، والذي لا يشك أنه كان ميدان القوم إذا تجاوروا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيهما قصب الرهان، ثم بحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل وزاد بعض الشعر على بعض، كان الصاد عن ذلك صادا عن أن تعرف حجة الله تعالى"[1] .

ويثبت مرة أخرى أن مدار التفرد في الخطاب القرآني إنما هو تفرد نظمه وتميز طريقة بنائه فيكون الإمام" **عبد القاهر الجرجاني الجرجاني**" بهذا أول بنيوي عرف كيف يثبت بالدليل والبرهان أن المعنى تبع للمبنى، وأن المقصد إنما يستشف من خلال فهم نمط المبنى اللغوي.. طريقة ترابط الألفاظ وتجاور الكلمات. ثم إن مناط الإعجاز ليس لأن العرب فشلت في التحدي إنما يقع في سبب فشلها لهذا التحدي ومكمنه. يقول"**الجرجاني**": إذا سقنا دليل الإعجاز قلنا لولا أنهم حين سمعوا القرآن وحين تحدوا إلى معارضته، سمعوا كلاما لم يسمعوا قط مثله، وإنهم قد رازوا أنفسهم فأحسوا بالعجز بأن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه، أو يقع قريبا منه لكان محالا أن يدعوا معارضته وقد تحدوا إليه وقرعوا فيه، وطولبوا إليه... فقيل لنا قد سمعنا ما قلتم فخبرونا عنهم عن ماذا عجزوا؟ أعن معان من دقة معانيه وحسنها وصحتها في العقول؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟ فإن قلتم عن الألفاظ. فماذا أعجزهم من

1 - دلائل الإعجاز، ص 22

اللفظ؟ أم ما بهرهم منه؟ فقلنا أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها وفي مضرب كل مثل وفي مساق كل خبر وصورة كل عظمة وتنبيه وإعلام وتذكير وترغيب وترهيب ومع كل حجة وبرهان، وصفة وبيان، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، واتقانا وإحكاما لم يدع في نفس بليغ منهم موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول وخلدت القروم فلم تملك أن تصول[1].

إن مكمن الإعجاز في الخطاب القرآني كما يرى بذلك "**الجرجاني**" إنما يظهر في النظم. ووحده نظم القرآن يجعله مختلفا عن الشعر.

2 _ كل ما في القرآن أشرف من غيره:

يذهب "**محمد الدراز**" إلى أن الجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد وأمسها رحما بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها، وهي أحق به، بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين، لا يوما أو بعض يوم بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور، فلا المكان يريد بساكنه بدلا، ولا الساكن يبغي عن منزله حولا.. وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان[2].

1- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص.ص 53،54

2 – محمد عبد الله الدراز: النبأ العظيم، دار القلم، الكويت، 1977، ص 91

إن أول ما يفاجئنا ويسترعي انتباهنا من أسلوب القرآن خاصية تأليفه الصوتي، فهناك اتساق وائتلاف عجيبين يسترعي من مسمعنا ما يسترعيه أعذب اللحن وأحلى الأناشيد "إن أول شيء أحسته تلك الأذن العربية في نظم القرآن الكريم هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيما منوعا يجدد نشاط السامع لسماعه ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعا بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النفس فيه آنا بعد آن إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى"[1]. ولئن توقف "**الدراز**" عند حدود الحركة والسكون والمد والغنة فإنه أغفل خصائص الصوت في حد ذاته، إذ إن القرآن الكريم يتخير حتى الأصوات التي تدخل في تشكيل الكلمة، واعتماد الهمس دلالته مختلفة عن اعتماد الأصوات الانفجارية، والسورة التي تحوي على عدد كبير من صوت الراء مثلا ليست دلالتها الأسلوبية كتلك التي تحوي على صوت التاء أو الهاء أو الحاء، فالله سبحانه وتعالى يتخير الأصوات حسب الموضوعات. فالانتقال في أبنية المفاهيم والأفعال الكلامية يتبعه انتقال حتمي في أبنية الأصوات التي لها قيمة دلالية وأسلوبية وبلاغية فالنظر في تجاور الأصوات مثله مثل النظر في تجاور الكلمات. القرآن الكريم في اختياره للأصوات كان اختيارا دقيقا لا يمكن لشاعر أن يحتار النظم ويختار الكلمة ثم يختار أصواتها.. فهذا الاختيار لا يتأتى إلا لمن له علم بأسرار اللغات. بل إنه سر كبير من أسرار القدرة الإلهية لا يتأتى للبشر مهما كانت صفتهم ومقدرتهم التعبيرية.

من خصائص أسلوب القرآن الكريم ما يجعله يتفرد بصفة التميز والاختلاف عن الشعر أنه يقتصد في اللفظ ولكن يوفي المعنى حقه وزيادة ورغم ما للعرب من مقدرة بلاغية

1- المصدر نفسه، ص 103

في الإيجاز إلا أنه يستحيل أن يصل إيجازهم إلى مثل إيجاز القرآن الذي بقدر إيجازه بقدر ما تتضخم الدلالة ويتسع المعنى، هذا فضلا عن المنافرات الدلالية والمفارقات التي يقوم عليها خطاب الخيال الذي يجسد الصورة فيجعلها واقعية تتحرك على مرأى منا ومسمع. ففي قوله تعالى في سورة "هود": وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" هود/ الآية 44.

تجلى لنا منها الإعجاز وبهرنا الذي نرى ونسمع أننا لم نجد ما وجدنا من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ... ومعلوم أن مبدأ العظمة أن نوديت الأرض ثم أمرت، ثم أن كان النداء ب"يا" دون " أي" نحو يا أيتها الأرض، ثم إضافة الماء إلى الكاف، دون أن يقال ابلعي الماء، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو شأنها: نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم قيل "غيض الماء" فجاء الفعل على صيغة "فعل" الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: "وقضي الأمر"، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو "استوت على الجودي" ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن في مقابلة "قيل" في الخاتمة بقيل في الفاتحة إن لشيء من هذه الخصائص التي تملؤنا بالإعجاز روعة وتحضرنا عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق؟[1]

نرى هذا المستوى البلاغي الذي لا يمكن أن تؤديه أية عبارة غيرها وهذا الإيجاز في التعبير عن قصة كانت بداية لتاريخ البشرية الثانية وطريقة نظم الكلم وترتيب العبارات ووضع الضمائر، ثم كيف كان التناسب مابين بداية الآية ونهايتها، تناسب مابين مقدمة

1- دلائل الإعجاز، ص.ص 59،60

الحدث وخاتمته، ننظر إلى هذه الصناعة الفذة والإبداع الخارق.. ولنا أن نقارن بالشعر.. هل يمكن للشاعر أن يدرك هذه الأسرار فينظم شعره وفقها؟.. وفرضا أدرك هذه الإسرار هل يمكنه أن يصنع شعره صناعة ملتزما بهذه العجائب في اختيار الصوت والتركيب والدلالة والنظم والبيان والمفارقات الدلالية بأسلوب محكم واضح وبلفظ قليل ولكنه دال ومفعم بالطاقة التعبيرية، مشحون بالدلالة. وكل لفظ قد اختار موقعه والتزم موضعه الذي خصص له لوحده دون غيره. ليعبر بإيجاز عن دلالات منفتحة. ضخمة وكثيفة؟؟؟

3 ـ الاختيار الدقيق للفظ مع حسن التأليف:

فكما يقول "**السيوطي**": "كلام الله منزه عن الاختلاف فإنه على منهاج واحد في النظم يتناسب أوله مع آخره. وعلى درجة واحدة في الفصاحة فليس يشتمل على الغث والسمين[1].

بل وكأن الألفاظ حيكت لتكون قوالب لتلك المعاني التي تحملها، ولا يمكن استبدال كلمة مكان كلمة، ولا صوت مكان صوت، ولا نظم بنظم آخر. ومما يضرب مثالا على عجيب ألفاظ القرآن كيف تستقى وتعتمد لفظة "**ضيزى**" التي ورد ذكرها مع قوله تعالى في سورة النجم: " أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (21) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (22) " النجم/ الآية 21،22.

يقول الباحثون المهتمين خاصة بمجال الأسلوبية. إن كلمة "ضييزى" كانت من الكلام المستوحش، المستهجن الذي تستثقله الأذن العربية وتحكم على مستخدم هذه اللفظة بأنه نابي، قليل الفصاحة بعيد عن البلاغة. وبالفعل لا تدخل هذه الكلمة في

1- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحق محمد علي البجاوي، مجلد1، دار الفكر العربي، ص9

الخطابات العربية إلا ورأيت اللفظة تشين الموضع ولا تحسنه وتستثقل التلفظ ولا تسيغه وفي الشعر يكون أكثر ثقلا وأكثر استهجانا فيُحكَم على القصيدة بالضعف ويُحْكَم على الشاعر بالفشل على الأقل في تلك القصيدة أو في ذلك البيت، فتجدهم يقولون القصيدة رائعة غير أن هذه اللفظة الموجودة في ذاك البيت ثقيلة، مستوحشة ضيعت جمال القصيدة كلها، وقدحت خصوصيته فضلا عن كونها كسرت جمالية الإيقاع الموسيقي الذي يمتاز به الشعر والذي هو من خصوصيات الشعر دون غيره. ولكن هل نرى هذا الاستهجان في القرآن وقد اعتمد على هذا اللفظ النابي بالذات وفي سورة النجم؟

إطلاقا.. إنما اللفظة وُضعت في موضع قيس لها، وفي مكان نُسج من أجلها، حتى إننا لا نستطيع أن نستبدل لفظة مكانها من الألفاظ التي ترادفها والتي يُعتقد أنها خفيفة النطق عذبة المورد، ولم تعدمنا التجربة فهل تصلح لفظة "غير عادلة" مثلا أو هل تصلح لفظة "جائرة"، ثم هل تصلح لفظة "ظالمة". ولا كلمة من هذه الكلمات تصلح لتكون عوضا عن لفظة "ضيزى" بديلا عنها في مكانها الذي حيك لها دون غيرها رغم ترادفها، فالمعنى لا ينفلت لكن الجمال يضيع والاستهجان يحدث. فلنقارن قوله تعالى: " أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (21) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى(22)". بقولنا . اعتمادا على مرادفات "ضيزى" ولنتصور كيف سيكون تلقي الخطاب القرآني:

" أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ غير عادلة".

أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ظالمة".

أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ جائرة".

من الواضح تماما أن هذا الكلام ليس بالقرآن في شيء، رغم أن ما تبدل في الآية كلمة واحدة وأكثر من هذا الكلمة التي كرهت العرب استخدامها. قيل إن السبب ثقلها لتجاور صوت الضاد مع الزاد وتقارب مخرجيهما.

إننا نلاحظ الفرق بين جمال وقع تلقي الآية القرآنية وبين وقع هذا الكلام على أساس أنه كلام بشري عادي. ما الذي جعل هذه اللفظة تفسد مواقع الشعر كلها حين تدخل في تركيب كلمه وتجمل موضع القرآن حين دخلت في تركيب كلمه؟ أليست اللفظة نفسها؟ إنه الإعجاز الرباني.. صورة بسيطة لكنها واضحة عن تمايز القرآن عن الشعر*.

4_الفاصلة القرآنية لا تعني السجع:

الفاصلة في القرآن الكريم تجسد الإيقاع والجمال ولكنها ليست بحرا شعريا وليست سجعا وليست قافية. وقد تحدث عن هذه القضية البلغاء كـ"**البقلاني**" و"**الرماني**" و"**الخطابي**" و"**الجرجاني**" مؤكدين أن الفاصلة مختلفة عن السجع، والإيقاع الموسيقي الموجود في القرآن مختلف تماما عن الإيقاع الموسيقي الموجود في الشعر. إن الموسيقى في

---

*ونؤكد دائما على انه يستوجب أن تكون للشخص ذائقة لغوية عربية.. بيانية وبلاغية ويجب أن يكون متعمقا فيها متمكنا من التمييز بين أساليبها وفهم مستوى اللغة العليا عن بقية اللغات ليتمكن من ملاحظة هذه الفروق. ولا اعتقد أن المستشرقين الذي تعلموا اللغة العربية فقط من أجل القدح فيها وكتابها السماوي المقدس يمكنهم ملاحظة سر جمال النظم القرآن واللفظ القرآني في مقارنته بالشعر.

*رغم بعض آراء المستشرقين التي تنصف اللغة العربية: قال المستشرق الفرنسي "لويس ما سينيون" اللغة العربية هي التي أدخلت إلى الغرب طريقة التعبير العلمي، واللغة العربية من أنقى اللغات فقد تفردت تفردها في طرق التعبير العلمي والفني والصوفي.

الشعر هي أساس الشعر ليكون شعرا. حتى أن التعريف الذي لا يحيد عنه النقاد والشعراء للشعر إنما هو تعريف ابن "**قتيبة**": "الشعر كلام موزون مقفى"

رغم أن هذا التعريف بقي الآن يختص فقط بالشعر العمودي لأن الحر منه قد تحرر من الوزن والقافية لكن تبقى الموسيقى الشعرية هي أساس الشعر والإيقاع سبيله.. فالتحرر من الوزن لا يعني التحرر من البحر في الشعر، بل غالبا ما تنعدم الدلالة وتفقد عنوانها في بحث الشاعر عن الإيقاع ومحاولته ترويض مقصده في التعبير وفق ما يطلبه السابق من القول الشعري في تحقيقه للإيقاع والموسيقى التي هي أساسه وشكله وسنده ومكونه.

الفاصلة رغم أنها تضفي إيقاعا وجمالا لكنها ليست أساسا في حد ذاتها، إنها لا تُطلب لذاتها بل هي تابعة للمعاني. في حين أن السجع ضرورة تسبق المعنى.

5_ **الشعر انفعال يصدر عن عاطفة تغيب العقل**: إن أغراض الشعر كلها تنبع عن عاطفة صاحبها، سواء الشعر الذاتي أو الموضوعي وتزداد حدة هذه العاطفة مع الشعر الذاتي. الشعر يعبر عن توجه صاحبه وأهوائه وميولاته. عادة ما يكون تجارب ذاتية ووجدانيات فردية. غالبا ما يزيّن الحزن للقراء من خلال التغني بالحب والفقدان، بالجمال والغربة والضياع، بالوحدة والحزن والألم.. وكأن الشعر يستسيغ هذه الأحاسيس حتى قيل ليس بالشاعر من لم يذق طعم الألم والحزن. أما الخطاب القرآني فهو يسم الفرد الذي يستسلم لمثل هذه الأهواء بالسلبية، ويضع حدودا صارمة قصد النجاة من الفتن التي تبعث على هذه الأهواء والمشاعر، ويعطي حلولا تخدم الفرد والأمة (الشعر لا يعط الحلول. إنه يطرح القضايا وفقط وأغلبها قضايا وجدانية).

كما أن القرآن يقصد إلى إقناع العقل وإمتاع العاطفة مؤمنا أن في النفس الإنسانية قوتان قوة تفكير وقوة وجدان ولهذا تجده يراعي هذين الجانبين، ويهتم بهاتين القوتين محاورا

كليهما. ولنا في قصص الأنبياء والأمم السابقة الدليل الأكبر، فبقد ما تمتع بقدر ما تدفع الأذهان إلى التفكر والتدبر. وفي كل هذا يعتمد طريقة عجيبة في تعامله مع القارئ الضمني الغائص في الأعماق. إنك وأنت تقرأ القرآن الكريم لا تسمع كلاما ولا تقرأ لغة بل ترى صورا وتشاهد حقائق ماثلة أمامك.

يؤكد على هذه النظرة "**سيد قطب**" في تفسيره لقوله تعالى: " وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ".يس/ الآية 69 يقول: للشعر منهج غير منهج النبوة.. الشعر انفعال وتعبير عن هذا الانفعال والانفعال يتقلب من حال إلى حال والنبوة وحي على منهج ثابت يتبع ناموس الله الثابت الذي يحكم الوجود كله ولا يتبدل ولا يتقلب مع الأهواء الطارئة تقلب الشعر مع الانفعالات المتجددة التي لا تثبت على حال. النبوة اتصال دائم بالله محاولة لرد الحياة في أعلى صوره وأشواق إنسانيته إلى الجمال والكمال مشوبة بقصور الإنسان وتصوراته المحدودة بحدود مداركه واستعداداته، فأما حين يهبط عن صوره العالية فهو انفعالات ونزوات قد تهبط حتى تكون صراخ جسد وفورة لحم ودم. فطبيعة النبوة والشعر مختلفتان من الأساس: الشعر أشواق تصعد من الأرض.. والقرآن هداية تنزل من السماء[1].

وهذا من أدق وأجمل الرؤى التي تميز الشعر عن القرآن بالنظر إلى كيفية تلقي القارئ له. لقد أصاب "**سيد قطب**" في تصويره لها الفرق تصويرا دقيقا وناضجا.

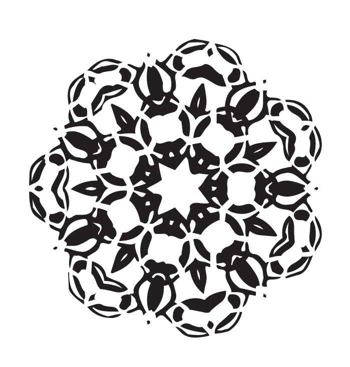
ونختم برأي "**عبد القاهر الجرجاني**" هذا العلم الذي تجاوز علمه مدارك عصره وبلغ مستواه مستوى أحدث النظريات النقدية المعاصرة التي تبحث في الدلالة والمقاصد حيث يؤكد على أنه لا جدوى الشعر إن أنت قارنته بالقرآن فهو إبداع لغرض خاص به لا علاقة

1- سيد قطب: قي ظلال القرآن، ص

له بأمور الدين، يقول: "الشعر ليس فيه كثير طائل! وأن ليس إلا ملحمة أو فكاهة أو بكاء منزل، أو وصف طلل، أو نعت ناقة أو جمل، أو إسراف قول في مدح أو هجاء وإنه ليس بشيء تمس الحاجة إليه في صلاح دين أو دنيا[1].

في حين أن القرآن هو دستور البشرية يصلح لأمور الدين والدنيا.

ولا تزال هناك جوانب كثيرة في الخطاب القرآني تميزه عن الشعر منها ما انتبهنا إليها وانتبه إليها من هم قبلنا ومنها ما مازال طي الخفاء يحتاج إلى قارئ متمرس يكتشفها من خلال البحث عن سر الإعجاز القرآني.



1- دلائل الإعجاز، ، ص21